المحاضرة الرابعة:الخلدونية وعلم العمران

أهداف التعليم :

* التعرف على أثر العقيدة الإسلامية في بناء الفكر الخلدوني بصفة عامة وفي بناء علم العمران البشري بصفة خاصة .

* التعرف على الفكر التربوي والتاريخي لدى إبن خلدون

* التعرف على علاقة علم العمران بالدين والعقل .

تشير الدراسات إلى أن الأبحاث المتعلقة بالجانب الإجتماعي للإنسان قديمة قدم الإنسان ذاته ، إلا ان التجمعات الإنسانية لم تتحول إلى موضوع للدراسة إلا على يد العلامة عبد الرحمان الذي جعلها علما مستقلا بذاته متميزا عن غيره من الأبحاث . وإن دل هذا على شيئ فإنما يدل على السمات الإبداعية الذاتية التي يتميز بها فيلسوفنا .

لقد ذكر إبن خلدون نفسه أنه إكتشف علما مستقلا لم يذكره سابقوه من المفكرين على الإطلاق ، وهذا ما بينه في قوله " وكأن هذا علم مستقل بنفسه ، فإنه ذو موضوع ، وهو العمران البشري والإحتماع الإنساني ، وذو مسائل ؛ وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته ، واحدة بعد أخرى ، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا".

ولقد حاول إبن خلدون أن يميز هذا العلم الذي إكتشفه عن باقي العلوم الأخرى التي كانت موجودة قبله والتي قد ترتبط به بشكل أو بآخر كالبلاغة والسياسة والمنطق . ويبن بطريقة دقيقة أن المسائل التي يبحث عنها ذلك العلم درست في علوم أخرى ، ولكنها لم تدرس بنفس الطريقة ولا لنفس الغاية . فأصول الفقه تعرض للغة لا على أنها ظاهرة إجتماعية أو بقصد إيضاح التاريخ ولكن بإعتبارها مسألة دينية ولأجل شرح القواعد التي يجب بمقتضاها فهم القرآن . ويبحث علم الكلام عن ضرورة وجود الحكومة ولكن ذلك نتيجة طبيعية لكون

الخلافة نظاما دينيا . أما أنها في الوقت ذاته شكل من أشكال الحكومة وأن الحكومة ظاهرة إجتماعية فذلك ما لايعني به علماء الكلام ".

ويبدو أن هذا العلم الجديد لقي العناية الدقيقة من طرف إبن خلدون ، فخصه بالدراسة والتأليف وإعترف بأنه مستقل بذاته وهو يتميز عن باقي العلوم الأخرى من ناحية قضاياه ووسائله وما " يلحقه من العوارض ،وقد وصل إليه عن طريق الغوص والبحث . ولا يدخل ضمن علم الخطابة الذي يعتبر موضوعها إستمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه عن طريق الأقوال المقنعة ، كما لا يدخل ضمن علم السياسة المدنية التي يعتبر موضوعها تدبير المدنية بمقتضى الأخلاق ، والحكمة لحمل الجمهور على إختيار منهج صالح في الحياة لحفظ النوع وبقائه ".

ونظرا لحاجة الإنسان الضرورية للإجتماع الإنساني ، إستعملت كلمة العمران منذ قديم الزمان ووردت في مؤلفات الكثير من المفكرين والباحثين ، بل كانت على الدوام مطلبا من المطالب الأساسية للإنسانالذي يعتبر مدنيا بطبعه ويعمل دوما على التقرب من أفراد مجتمعه لكي يضمن حاجياته الضرورية والأساسية .

وبحسب إبن خلدون فقد جبل الإنسان على " طبيعة خاصة تجعله ينزع إلى الإجتماع الإنساني ليحافظ على حياته وليوفر غذاءه وليدافع عن كيانه ، ولا يستطيع أن يفعل ذلك منفردا ، ولا بد له من أن يعتمد على أخيه الإنسان لكي يساعده فيما لا يقدر عليه ، ودافعة عن نفسه ، وتدبيرا لشؤونه ، وإذا كان هذا صحيحا بالنسبة للإنسان ، فهو صحيح أيضا بالنسبة للمجتمع ، فالمجتمعات تتكامل وظائفها ، وتتعاون فيما تعجز عنه من توفير أسباب البقاء".

فالإجتماع البشري هو موضوع التاريخ الذي يرتبط كل الإرتباط بالمجتمع، والسبب أن إبن خلدون يعرف التاريخ على أنه خبر عن الإجتماع الإنساني . والتاريخ يهتم بدراسة ماضي الأفراد والشعوب من جهة ، كما يدرس العمران وهو يتحين ، أي يدرسه في وضعه الحاضر

وهو ينسج علاقات بتراث المجتمع وينميه. ذلك أن حقيقة أي وضع تاريخي قد تنكشف لنا بفضل معطياته التي كان فيها واقعا راهنا ، فالحاضر هو الذي يبرز أحيانا ما كان كامنا في الماضي .**خصائص العمران البشري عند إبن خلدون :** إعتمادا على قاعدة الدوام والإستمرارية يصف إبن خلدون العمران البشري بمجموعة من الخصائص تضمن له التواجد بمعية مجتمعات إنسانية أخرى :

–هو بمثابة قوة متماسكة تواجه العوامل البشرية والطبيعة (وهنا قد ذكرنا سابقا ضرورة الإجتماع الإنساني للدوام والإستمرارية).–وجود حاكم يضمن لهم مصالحهم وينزع عنهم مفاسدهم ، وأن" مجتمع بدون قائد قد يفضي إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وإنقطاعهم".
– توزع الأعمال والوظائف الضروية التي تنتج الرفاهية على أفراد ذوي كفاءة عالية.
–لكل مجتمع رقعة جغرافية معينة . وفي داخل الرقعة الجغرافية يسود نوعا من التعاون لوقاية المجتمع والحفاظ عليه وتحصينه ضد الأعداء .– وجود ثقافة معينة .
–الإنتماء والولاء للمجتمع ، فبقاء " المجتمع لزمن طويل يعتمد على التماسك الإجتماعي (العصبية) أو الإحساس بالإنتماء والولاء للمجتمع . فالعصبية تقرر إستمرارية المجتمع الإنساني ، فكلما كانت العصبية قوية كلما كان بإمكان المجتمع التمتع بالبقاء".

أنواع العمران البشري عند إبن خلدون :

العمران البشري عند إبن خلدون هو مجموعة مركبات البنيات التحتية والفوقية للمجتمع ، ومن خلال دراسته للتجمعات البشرية إستنتج نوعين من العمران :

- العمران البدوي
- العمران الحضري .

وتميز الدراسات الإجتماعية بينهما ،وتسمي النوع الأول بالحضارة البدائية والثاني بالحضارة المدنية .

1–العمران البدوي : هو الذي يكون في الضواحي وفي الحلل المنتجة في القفار وأطراف الرمال، وهو الذي يقتصر فيه على الضروري من أسباب المعاش . ويقصد به إبن خلدون فئة سكان البادية الذين يمتهنون تربية الإبل والماشية وسكان الريف الذين يمتهنون الزراعة. لذا فالعمران " البدوي مرتبط بالبادية التي هي مفهوم ذو معنيين : إقتصادي وجغرافي ، ومن ثم ، فإنها تدل على السهل والجبل كما تدل على الصحراء . وجملة القول أنها تعني كل المساحة الموجودة خارج أسوار المدينة ، ففي هذه البيئة الطبيعية تعيش جماعات إجتماعيةوإقتصادية يشكل عمرانها طريق حياة البادية . كما يشكل ثقافتها ، سواء أكانت هذه الثقافة مادية أو لا مادية".

ويشير إبن خلدون إلى أن فئات المجتمع تختلف عن بعضها البعض بسبب ما تعتمده من أساليب في تحصيل معاشها ، فهناك فئات تعتمد على الفلاحة والزراعة وأخرى تعتمد على تربية الماشية (أبقار ومعز وإبل). وإجمالا يمكن جمع مميزات المجتمع البدوي في النقاط التالية :

*الإقتصاد الزراعي أو الحيواني أساس الحياة.

* التخفيض في الإنتاج والإستهلاكوالإكتفاء بالضروري من الحاجيات .

*التعلق ببيئة معينة ومكان محدد للإقامة .

*الخضوع التام الإجتماعيوالإقتصادي للمدينة .

2–العمران الحضري : هو الذي يكون في الأمصار والمدن للإعتصام بها ، والتحصن بجدرانها ، وهو العمران القائم على توافر الكماليات بسبب الغنى والرفه مما يدعو إلى الدعة والسكون .ومن أهل الحضر من إنتحل في " معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو، لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم...ولم يفرق إبن خلدون بين أهل الريف والبدو، أو بالأحرى بين سكان القرى وسكان البادية ، بل إعتبرهما فئة واحدة هي فئة البدو مقابل فئة الحضر سكان المدن التي تمثل

القطب الثاني في تقسيمه للعمران. علما أنه ميز بين حياة الريفيين وحياة البدو بإختلاف وسائل الإنتاج وأساليب المعيشة".

ومن هنا أمكننا القول أن المجتمع الحضري حسب إبن خلدون يتميز بما يلي :

*إمتهان الأفراد للصناعة والتجارة .

*إرتفاع مستوى الإستهلاك والإنتاج .

*إستقلال المجتمع الحضري السياسي والإقتصادي عن المجتمع البدوي .

وكخلاصة لموضوعنا يمكننا التنويه بأهمية الأفكار التي قدمها إبن خلدون في الميدان الإجتماعي من بينها إمكانية قيام علم مستقل يكتشف المبادئ العامة التي يقوم عليها الإجتماع الإنساني وهو علم العمران البشري .وأن هذا العلم له منهج وأسلوب علمي في البحث يعتمد على النظر في الحقائق وتمحيصها وليس على الظن أو الخيال".